آفَاق ثقَافيَّة

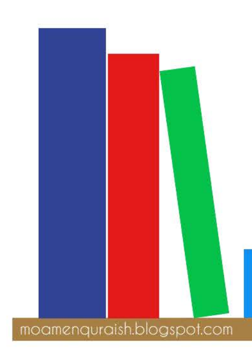
03



حرية التعبير

في التشـــريـــع الإسلامـــي

مُحَمَّدْ مَحْفُوظْ



حرية التعبير

في الفكر الإسلامي المعاصر

رؤية أولية

محمد محفوظ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

آل محفوظ ، محمد جاسم
حرية التعبير في الفكر الاسلامي المعاصر رؤية أولية . / محمد جاسم
آل محفوظ - الدمام
، ١٤٣٠هـ
.. ص ، سم

ردمك: ١-٢٧٥٢-٠٠٠-٦٠٣-٩٧٨

١- الفكر الاسلامي أ.العنوان
ديوي ١٨٩،٩ ١٤٣٠/٣٨٢٤

رقم الإيداع: ١٤٣٠/٣٨٢٤
ردمك: ١-٢٧٥٢-٠٠٠-٦٠٣-٩٧٨



مركز آفاق للدراسات والبحوث

Aafaq Center For Research & Studies

مقدمة

إدراكًا منا بأهمية التواصل الثقافي المستمر؛ وجدنا من الأهمية بمكان تبني فكرة «الإصدار المتسلسل» كوسيلة نوعيّة مضافة إلى كافة الوسائل الثقافية الأخرى التي نضعها على عاتقنا، والتي من شأنها أن تعقد الصلة الوثيقة مع ذوي الاهتمام الفكري والثقافي والاجتماعي في الحيّز الوطني بالدرجة الأولى، فهو رهان لا يخرج عن إطاره الأدبي؛ علينا دفع ضريبته بشكل دوري ومستمر، عبر (سلسلة آفاق ثقافية) بشكل متعاقب ومتنوع، نُطل من خلاله عليكم ومتناولين لأبرز العناوين الثقافية المعاصرة؛ وفق مرتكزات الأصالة وأنساق الحداثة، ليصبح الإنسان باعتباره القيمة والمقصد هو المستهدف من كل ذلك، بل ويكون المجتمع برمته قد دخل في دوائر متشابكة من العلاقات الموجهة والتي تحكمها منظومة من القيم، كـ « التسامح، والعيش المشترك، واحترام الآخر، وإرساء كل ما من شأنه التأكيد على مبادئ الحرية والعدالة والمساواة واحترام حقوق الإنسان» وهذا بحق ما نحرص أن يكون سعينا من أجله، بحيث يصبح هذا الاصدار ترجمانًا حقيقًا للمسعى الثقافي بإطاره العام، عبر حالة أقرب ما تكون من

التعاقد الأخلاقي مـع القارئ الكريم، وكالتزام أدبي نتوخاه ونتعهده مع الكاتب نفسه.

تأتي هذه الفكرة اسـتكمالا للأدوار المتبناة للمساهمة في تشجيع ودعم لحركة البحث والتأليف، لأجل إثراء المكتبة العربية بالكتب والدراسات الجادة، والسعي الحثيث إلى إيجاد منـاخ يتغذى من قيم الحوار والتسـامح، وكل ما يوفر حالة من التعددية والعيش المشترك، وبث ثقافة الوعي بالحريات كافة بين أبناء الوطن الواحد، بل ونحاول جاهدين أن نروم إلـى ما هو أبعد من ذلـك؛ بالتواصل المعرفي والثقافي مع سـائر الثقافات الإنسانيّة الأخرى. يأتي هذا تأكيدًا على نبذ العصبية والتطرف، ومكافحة كافة أشكال الإرهاب والتطرف، ولكل ما يدفع الأمور إلى غلواء التشدد الفكري. لذا كان لزامًا توخي مختلف البرامج المتعددة والتي من شأنها أن تعزز من سبل الارتقاء الثقافي إلى أعلى مستوياته.

ومن هذا المنطلق نعتقد بأن فكرة «السلسـلة» إن لم تلـبِ الحاجـة والرغبة لدى المهتمين بالشـأن الثقافي على المدى القصير والمتوسـط، فهي ولا شـك ستكون الخطوة الرائدة لخطوات قادمة من شأنها أن تعزز الفعل الثقافي في المجتمع والأمة معًا على المدى البعيد، وبالتأكيد هذا يتطلب من المهتمين أنفسـهم أن يسهموا في دفع مسيرة التنميّة الثقافيـة وفـق كافة الإمكانات وحسـب مقتضيـات البيئة، ولعلّنا نجد في (سلسـلة آفاق ثقافية) مسـلكًا من مسالك عدة تنحو بالاتجاه نفسـه. وذلك من أجل أن نرسم النقطة على الحرف الصحيح؛ لنشـكل الفعـل الثقافي الصحيح ما أمكننا ذلك.

ثمة علاقة دقيقة تربط بين قدرة الإنسان على التفكير واستقلاله فيه ، وبين قيمة الحرية وممارسة مقتضياتها . فالإنسان الذي يمتلك إمكانية التفكير المستقل ، هو ذلك الإنسان الذي يستطيع استعادة حريته وإنسانيته ، ويستثمر طاقاته وإمكاناته في سبيل تكريس نهج الحرية في الواقع الإنساني .

فاستعادة الحرية بكل متطلباتها وآفاقها ، تبدأ من الإنسان نفسه ، فهو الذي يقرر قدرته على التحرر والانعتاق أو خضوعه وأستقلاله واستعباده لمراكز القوى والسلطات ، وذلك لأن « التفكير السليم ، هو الشرط الأول للقوة في الحياة . من هنا ركز القرآن الحكيم على أن الإيمان بالله يعطي صاحبه التحرر ، والتحرر يعطيه القوة (التمسك بالعروة الوثقى) والعلم (يخرجه من الظلمات إلى النور) . ولكن أي إيمان هذا الذي يعطينا القوة والعلم . إنه الإيمان الواعي ، لا الإيمان المكره عليه فهو الآخر نوع من الاستعباد والخضوع للطاغوت . أرأيت لو آمن شعب بالله لأن السلطة السياسية فيه أجبرته عليه ، هل هذه حرية أم استعباد ؟ بالطبع استعباد ، لأن هذا الشعب سوف يكفر بالله لو أن السلطة السياسية

أمرتــه بالكفر . من هنا تحدث القرآن في بداية الحديث عن الحرية الدينية وقال [لاإكراه في الدين] [١] .

فجـذر الحريــة ، هــو أن يتحــرر الإنســان مــن كل الضغوطات والأهواء والشهوات ، التي تدفعه إلى الخضوع والانســياق ورائها .. فحينما يغمر الإيمان بالله عز وجل قلب الإنسان ، ويتواصل بحب واختيار مع القدرة المطلقة ، تنمــو لديــه القدرة على الإنعتاق من كل الأشــياء التي تناقض حرية الإنسان . فطريق الحرية الإنسانية ، يبدأ بالإيمان والعبودية المطلقة للباري عز وجل .. وذلك لأن « كل الأشياء حاضرة عنده ، لا يغيب شيء منها عن علمه لأن الأشــياء مكشــوفة لديه ، فلا مجال لإختباء الإنسان عن الله في أي عمل يخفيه ، أو سر يكتمه أو خطأ يستره ، لأن الإخفــاء والكتمان والســتر معــان تلتقي بالحواجز الماديــة التي تحــول بين الشــيء وبين ظهــوره مما لا مجــال لتصوره في ذات الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . ولعل هذا الإحســاس هو الذي يتعمق في وعي الإنسان من حركة إيمانه فيمنعه عن الجريمة الخفيــة ، والمعصية المســتورة ، والنيات الشــريرة التي تتحفز للإندفاع والظهور» [٢] .

مــن هنــا وقفــت النصــوص القرآنيــة ضــد الإكراه والســيطرة ، ودعت النبي الأكــرم (ص) إلى التحرك في اجــواء الإبلاغ والإقناع وحركة حريــة الفكر والتعبير .. إذ قال تعالى [وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر] .. [٣] .

وقال عز من قائل [فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر] .. [٤] ، وقال تبارك وتعالى [أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين] .. [٥] .

ولقد حدد (جودت سعيد) [٦] . مجموعة من الفوائد من آية [لا إكراه في الدين] منها :

١- إنها في ظاهرها حماية للإنسان الآخر من أن يقع عليه الإكراه من قبلك ، ولكنها في باطنها حماية لك أيضا من أن يقع عليك الإكراه ، فهي حماية للآخر وحماية للذات من أن يقع على كل منهما الإكراه .

٢- يمكن فهم هذه الآية على أنها إخبار وليس إنشاءً أي يمكن أن تفهم على أنها نفي وليست نهيا ، ويكون بذلك معناها إخبارا بأن الدين الذي يفرض بالإكراه لا يصير دينا للمكره فهو لم يقبله من قلبه ، والدين في القلب وليس في اللسان فهي بهذا الشكل إخبار بأن الدين لا يتحقق بالإكراه ومن يكره إنما يقوم بعمل عابث لا أصل له .

هذا معنى الآية حين نفهمها على أنها إخبار وليس إنشاءا أو أمرا ، كما يمكن أن نفهم الآية على أساس الإنشاء أي أن تُفهم على أنها نهي عن الإكراه ، لأنه لا يليق بالعاقل أن يقوم بعمل عابث ، ولأن فرض الإيمان والدين بالإكراه عبث فجدير أن ينهانا اللّه عنه ، فيكون المعنى نهيا عن ممارسة الإكراه للآخر ، ونهيا أيضا لنا عن أن نقبل الإكراه والخضوع له ..

فرشد الإنســان فردا ومجتمعا ، هو من جراء إلتزامه بحريته واحترامه التام لحريات الآخرين . فحينما تنتفي كل الضغوطات والإكراهات ، يتحقق مفهوم الرشـد في الواقع الخاص والعام . فالحرية بكل ما تحمل من معاني إنســانية نبيلة وقيم تعلي من شأن الإنســان وكرامته، وتحميـه مـن كل نزعـات الإسـتفراد والإقصـاء والنبذ والإكراه ، هي بوابة الرشد و وسيلته في آن .. وهي التي تخرج الإنســان من الغــي ، وتخلق حقائق الإستمســاك بالعروة الوثقى .

فالمجتمـع الذي يمارس حياته السياسـية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية ، بعيدا عن كل أشـكال الإكراه والعنـف ، هو المجتمع الرشـيد الـذي يدافع عن حقوقه ومكاسبه بالحرية .. وبها (الحرية) أيضا يصون حرمات الآخرين ومكاسبهم .

والتاريـخ يحدثنا أن كل من يمـارس الإكراه والعنف للدفـاع عن ذاتــه ، لا ينجز مراده ولا يحقــق هدفه ، بل ترتد عليه هذه الممارســات أكثر سوءا ويدخل في أتون النزاعات والحروب والعنف والعنف المضاد .

فالاتحاد السـوفيتي لم يسـتطع أن يحمي ذاته من التشـرذم والإنقســام والتلاشــي ، مع العلـم أنه يمتلك أعتــى الأسـلحة وأطورها . فهــذه الأســلحة الفتاكة لم تمنع الشعوب المنضوية تحت لواء الإتحاد السوفيتي من النهوض ورفض كل أشكال القهر والإكراه ..فالحضارات لا تبنى بالإكراه ، كما أن الأفكار لا تنتقل بالقسر والقهر .. فما أكثر الامبراطوريات التي انهارت وتلاشت وأصبحت

في ذمـة التاريخ ، بفعل اعتمادها واستنادها على القهر والإكراه ..

وفـي المقابل نجـد أن هناك أممـا ودولا صمدت في وجـه كل عمليـات القمع والقسـر والإكـراه ، لأنها تدير شؤونها وتسير أمورها بحرية وديمقراطية ، وبعيدا عن كل أشكال القهر والإكراه ..

فالحياة دائما لـكل أمة ومجتمع يدار بالحرية ، وينبذ الإكـراه بكل صنوفـه وأشـكاله ومسـتوياته . ويرتكب حماقة تاريخية كبرى كل من يسعى إلى إدخال غيره في دينه أو مذهبه أو حزبه بالإرغام والقهر والإكراه ..

والحريـة فـي المنظـور الإسـلامي ، مـن القيـم المتجـذرة في جبلة الإنسـان ، إذ أنـه (فطريا) يرفض التسلط والإستفراد بالرأي والإسـتبداد ، ويحب الشورى والمشـاركة، ويثنـى على المبادرة والقـدرة على الفعل والعمل ونبذ العجز بكل صنوفه وأشكاله ..

لذلـك فـإن الحرية مـن القيم الأساسـية في حركة الإنسـان الفـرد والجماعـة ، وبهـا يقـاس تقـدم الأمم وتطورهـا .. إذ لا يمكـن أن يتحقـق التقـدم إلا بالتحرر مـن كل معوقاتـه وكوابحـه ، والحريـة هـي العنـوان العريض للقدرة الإنسـانية على إزالـة المعوقات وإنجاز أسباب وعوامل النهوض والإنعتاق . لذلك فإن المفردات الأساسـية التي تنبع من قيمة الحريـة ، لا نتعامل معها وفق عقلية ظرفية ، آنية ، وإنما نتعامل معها باعتبارها جزءا مـن منظومتنـا العقديـة والفكريـة ، ولازمة من لـوازم إيماننا العميق بأن مشـروع الإسـلام فـي الحياة

شامل ومتكامل ، ويوفر كل متطلبات النهوض والتقدم ومستلزماتهما .

وحريــة التعبير مفردة من المفــردات ، التي تؤكدها قيمة الحرية في المنظور الإسلامي . لذلك فنحن ينبغي أن لا نتعامل مع هذه المفردة بطريقة إنشائية أو دعائية ، وإنما نتعامل معها باعتبارنا مأمورون بتحقيقها وصيانتها وتجذيرها في واقعنا الخاص والعام . والحريات وفق هذا التصور ، لا يمكن أن نجســدها ونتمثلها إلا وفق ســياق حضاري وثقافي قوامه الإســلام وخصوصياته الثقافية والمعرفية والاجتماعية ..

والبــاري عــز وجــل لا يعبــد حــق العبــادة فــي بيئة استبدادية ، إذ أن توفر الحريات ،يساهم بشكل أساسي فــي إنجاز مفهوم العبادة للخالق على أكمل وجه . إذ أن الكثير من المفردات التي يقوم بها الإنســان متقربا بها إلــى الله عــز وجل ، تتطلب مســاحة من حريــة الاختيار والتفكيــر ،حتــى يتســنى للإنســان ممارســة وظيفته العبادية بصورة مخلصة وبعيدا عن الإكراهات بمختلف أنواعها وأشكالها .

لذلك نجد أن الأنبياء جميعا حاربوا الاستبداد ، ووقفوا في وجــه كل الديكتاتوريات ، وعملوا من مواقع مختلفة لإرســاء دعائم الحرية للإنســان .. و « لقــد فك الأنبياء جميعا العلاقة بين الفكر والعنف ، فحرروا معركة الأفكار من معركة الأجســاد ، والله تعالى حمى الأجســاد من أن يعتدى عليها من أجل الأفكار ، فلم يعط لأحد الحق على جسد الآخر مهما كانت فكرته» (٧) ..

وفي سبيل نيل الحقوق والحريات ، لم يشرع اللّه سبحانه وتعالى للأنبياء ممارسة الإجبار والإكراه ، وإنما حدد مهمتهم ووظيفتهم في الدعوة بالموعظة الحسنة والتبشير والنذير .

فالوظيفة الكبرى هي هداية البشر ، بوسائل عقلية ـ سلمية ، بعيدة كل البعد عن كل أشكال الضغط والاستبداد والقوة ..

فالحرية هي الهدف والغاية والوسيلة في آن . فعبر حرية الاختيار نعمق ونجذر تحرر الإنسان من كل السلط والديكتاتوريات ..

ووفق هذا المنظور ، يكون الجهاد بمعنى الدفاع عن كل الحقوق والحريات ، وتوفير البيئة المناسبة لهداية الإنسان وسعيه الحثيث للقضاء على جذور الاستبداد والديكتاتورية . وعلاقة الباري عز وجل بالإنسان ، هي علاقة الحرية والمحبة وليس الإكراه والعنف .

وعلى هدى هذا نقول : أنه لا يجوز التضحية بحريات الأفراد تحت مبرر معارك الخارج وتحدياته الحاسمة . إذ أنه لا يمكن أن نواجه تحديات الخارج بشكل فعال ، إلا إذا وفرنا الحريات والحقوق لجميع المواطنين .

ولعلنا لا نعدو الصواب ، حين القول أن مجالنا العربي والإسلامي في العقود الخمسة الماضية قد قلب المعادلة ، إذ سعت نخبته السياسية الحاكمة ، إلى تكميم الأفواه والاستبداد بالرأي ، وإقصاء كل القوى والمكونات السياسية والثقافية تحت دعوى ومسوغ أن متطلبات المعركة مع العدو الصهيوني ، تتطلب ذلك .

وأصبح شعار (لا صوت يعلو فوق صوت المعركة) هو السائد . ولكن النتيجة النهائية التي وصلنا إليها جميعا حاكما ومحكوما ، أن هذا الخيار السياسي لم يوصلنا إلا إلى المزيد من التدهور والإنحطاط ، وبفعل هذه العقلية أصبح العدو الصهيوني أكثر قوة ومنعة ، ودخلنا جميعا في الزمن الإسرائيلي بكل تداعياته الدبلوماسية والسياسية والأمنية والثقافية والاقتصادية.

فتصحير الحياة السياسية والمدنية العربية والإسلامية ، لم يزدنا إلا ضياعا وتشتتا وضعفا . ولقد دفع الجميع ثمن هذه الخطيئة التاريخية ..

لذلك آن الأوان بالنسبة لنا جميعا أن نعيد صياغة المعادلة . فلا انتصار تاريخي على العدو الصهيوني ، إلا بإرتقاء حقيقي ونوعي لحياتنا السياسية والمدنية . فإرساء دعائم الديمقراطية وصيانة حقوق الإنسان ، وفسح المجال القانوني للتشكيلات السياسية والثقافية والنقابية والمهنية ، وتنظيم علاقة الحاكم والمحكومين وفق أسس دستورية وقانونية جديدة ، تلحظ متطلبات الطرفين .

كل هذه الممارسات والمتطلبات من صميم معركتنا التاريخية والحضارية ، وانتصارنا على العدو الخارجي ، مرهون إلى قدرتنا على إنجاز هذه المتطلبات في الداخل العربي والإسلامي .. فالديكتاتوريات لا تصنع منجزات تاريخية ، وإن صنعت سرعان ما يتلاشى تأثيرها من جراء الظلم والاستبداد وتكميم الأفواه وإمتهان كرامة الإنسان . ان الحرية بكل مدلولاتها السياسية والثقافية

والمجتمعية ، هي الشرط التاريخي الذي ينبغي أن نوفره في مجالنا الاجتماعي ، حتى تتهيأ كل الظروف المفضية إلـــى تحقيق الإنجاز التاريخي والحضاري ، وهذا لا يعني أن الديمقراطيـة حلا سـحريا وفوريا ، وإنمـا يعني إننا خطونـا الخطـوة الصحيحـة الأولـى في مشـوار البناء والتقدم .

والسؤال هو : ما هي معايير وضوابط حرية التعبير في الفكر الإسلامي المعاصر ؟

١) ***حقوق الإنسان المادية والمعنوية*** ، حيث أن للإنسان الحق في التعبير عن آراءه وأفكاره وقناعاته في الفضاء والمجال الذي لا يؤدي إلى إنتهاك حقوق الإنسان المادية والمعنوية . فحرية التعبير ، لا تعني السماح بالتعدي على حقوق الآخرين وممتلكاتهم المادية والرمزية. فالمعيار الأساســي والناظم لعملية حرية التعبير ، إنها منضبطة بضوابط حقوق الإنسان .

ومن المطلوب دائما أن لا ننظر إلى قيمة حرية التعبير السياسية والإعلامية ، بعيدا عن الضوابط الأخلاقية التي من الضروري أن تراعى من جميع الأطراف والقوى .

فحريــة التعبيــر لا تتماهى مع حــالات التطاول على المقدســات وتجــاوز البديهيات والضــرورات الأخلاقية . لذلــك فإن حريــة التعبير تمارس وفــق منظور متكامل يجمع هــذه الضرورة وضرورات أخــرى لا بد أن تراعى وتحتــرم . لذلك مــن الأهمية أن لا نأخــذ هذه القيمة

بشكل مجرد ، وإنما نعتبرها جزء من منظومة مفاهيمية متكاملة . فحرية التعبير جزء من نسق عام ، تتكامل فيه المفردات والعناصر ، بحيث يتشكل نسقا ديمقراطيا متكاملا .

فـ « نحن نعلم أنه بغير حرية الفكر والرأي وسيادة النظام الديمقراطي ، تعجز الثقافة ـ أية ثقافة ـ عن تحقيق تراكمها الطبيعي وإرتياد آفاق الإبداع . الديمقراطية صنو الثقافة وبيئتها الطبيعية . وليس معنى ذلك أن الثقافة تملك الحق في أن تقول ما تشاء ولو على حساب مقدسات المجتمع والدولة ، بل هي تملك الحق في أن لا تكون هذه المقدسات سببا وظيفيا لدى البعض في وضع الكوابح أمام حرية الانتاج الثقافي» .. [٨].

فالحرية تتحرك وتعمل وتمارس في فضاء ونطاق الحق ولا تتعداه . وهذا هو الذي يفسر لنا قيام أحدى عشر ولاية أمريكية بتشريع قانون (أكسون) القاضي بتقييد استعمال الإنترنت وحصره لتأمين الحشمة . كما قامت جامعتا (كارنيغي ميلون) و (إكسفرود) بوضع ضوابط لإستخدام الإنترنت ، كما قامت شركة الهاتف الألمانية بقطع الخطوط الهاتفية الخاصة بمقدم خدمة أمريكي لحملة مواد دعائية للنازية . ودعا البرلمان الأوروبي إلى تحرك عالمي لضبط تبادل المواد الإباحية والعنصرية على الإنترنت .

فالحريات مصانة ، وحقوق الإنسان مصانة، وحين التزاحم والتعارض والتناقض ، تقيد الحريات بحيث

تمارس دون الإضرار بحقوق الآخرين المادية والمعنوية والرمزيـة . فالنـص القرآنـي أمرنـا جميعـا ، بإحترام الآخريـن والمغايريـن ، بل أمرنا البر والقسـط بهم . إذ قـال تعالى [لا ينهاكـم اللّه عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن اللّه يحب المقسطين] [٩] .

« وقـد عنـى البـر والقسـط الضمانـات القانونيـة لحرياتهـم الدينية والاجتماعيـة ، وحقهم في التقاضي إلى أبناء ملتهم . فبقية الأديان القديمة كلها في الأقاليم التـي أفتتحهـا المسـلمون . وهكـذا ظهـرت منظومة المصالح الضرورية الخمس لدى الفقهاء المسلمين منذ القرن الثاني عشـر الميلادي وربما قبل ذلك ، وهي حق النفس ، وحق الدين ، وحق العقل ، وحق النسـل ، وحق الملك . وقد قال الشاطبي (وهو فقيه مالكي من القرن الخامس عشـر الميلادي) إن هـذه المبادئ أو الحقوق أو الإلتزامـات ربما لم تكن خاصة بالشـريعة الإسـلامية ، فقد قيل أن مراعاة في كل ملة ..» [١٠] .

٢) *إحترام قيم الأمة العليا :* فالحرية لا تعني التفلت من الضوابط والأخلاق ، وإنما تمارس الحرية بكل مستوياتها فـي نطاق هذه الضوابط والأخـلاق والقيم . ولعل من أهم الضوابط التي تمارسها جميع الأمم والشعوب ، هو أحترام مقدساتها الكبرى وصون قيم الأمة العليا . وذلك لأن هذه القيم ، هي التي تثري مضمون حريتنا وتنظم

العلاقــة بين مجموع القيم والمبـادئ بما يصطلح عليه (التفاضل بين القيم) .

فآراء الإنســان مصونة ، بمعنى أن الإنسان لا يقتل بســبب آراءه ومعتقداته .. والآراء والأفكار والقناعات ، لا تواجه بالقوة المادية أو إســتعداء السلطات ، وإنما بالرد الفكري والحوار المتواصل وبيان أوجه الخطل والضعف فــي الآراء المتداولــة . « ولا تتقدم المعرفة الإنســانية إلا بالتناضــل بين أصحاب الآراء المتخالفــة . أما إذا كان الناس جميعا على رأي واحد فإن أحدا لن يعرف الحق من الباطل ، والهدى من الضلال ، والاستقامة من الإنحراف الفكري» (١١) .

فالحرية حق طبيعي من حقوق الإنســان ، ولا يمكن لأي جهــة في المنظور الإســلامي أن تحجــر على حرية الإنســان أو تحول دون ممارســة الإنسان لحرياته . فهي من الحقوق الأصيلة المرتبطة بإنسانية الإنسان . بمعنى أن قوام إنســانية الإنسان هي الحرية ، وإي إنتهاك لهذه الحريــة ، بقدر هذا الإنتهاك ، تنتهك إنســانية الإنســان لذلك فالســبيل الذي أرســاه الدين الإســلامي ، لصيانة إنســانية الإنســان ، هو الحرية وعدم منعه من ممارسة حقوقه في التفكير والتعبير والبحوح بآراءه والدفاع عن قناعاته وأفــكاره . ولا بد أن ندرك أن إنكار هذه الحقوق ومنع الإنســان عــن ممارســتها ، ليس صيانــة للعقيدة والإســلام ، بل هو تشويه للدين وإظهاره مظهر المنكر لحقوق الإنسان .

فصيانة العقيدة والدفاع عن قيم الدين ، سبيلهما هو

إرساء دعائم الحرية ، وفسح المجال للناس لكي يمارسوا حريتهم ويصونـوا كرامتهم .. ويقول المرحوم الشـيخ (مرتضـى مطهـري) أن « كل مدرسـة تؤمـن وتعتقد بأيدلوجيتهـا لابد لها من حماية حريـة الفكر والعقيدة ، وكل مدرسـة لا تؤمن بهذا تمنع حريـة الرأي . وأن مثل هذه المـدارس تريـد أن تحصر الناس فـي إطار خاص وتمنعهم من بلوغ رشدهم الفكري»[١٢] .

وعلى المسـتوى الفقهي يكفل الإسلام حق التعبير المؤسسـي والتنظيمـي ، وذلـك لأن الفقـه الإسـلامي يشتمل على إجتهادات وتعبيرات فقهية متعددة ومتنوعة ، كما « أن الدولة في الإسلام ، وحسب رأيي وعلى خلاف كل مـا مورس تاريخيا ، بدءا مـن العصر الأموي ، ليس دولة شمولية . الإسلام يعطي للدولة أصغر مساحة من السـلطة على المواطن وعلى الإنسـان وعلـى الجماعة . الأمـر الـذي جعل مـن الإنجـاز الحضاري فـي التاريخ الإسـلامي وكما سـبقت الإشـارة إنجازا مرتبطـا بالأمة وبالمجتمع وبمبادرات الناس . إن المساحة الضئيلة التي تغطيها الدولة هي مساحة النظام العام للمجتمع والتي يلخصها تعبير : حراسـة العقيدة والشريعة . والحراسة لا تحمـل معنـى التدخل في حيـاة النـاس وعقائدهم . إننا لا نتصور دولة إسـلامية تنقب عـن عقائد الناس أو تتحـول إلى محاكم تفتيش كالـذي حدث مثلا في محنة خلق القرآن ، حيث تشـكل في مجلس الحاكم ما يشـبه المحكمة التي تسـتدعي أهل الرأي والفكر فيسئلوا عن أفكارهم ، أو كالـذي حدث لبعض حالات الصوفية . هذا

أمر غير مشروع . تعامل الناس على ظاهر الإسلام مالم يظهر منها ما يناقض هذا الظاهر» .. (١٣) .

فالإنســـان لا يقتل من أجل أفــكاره ، إذ أن له الحق التــام في الاقتناع بأي فكرة أو مبدأ . ولكن الذي يعارضه الإسلام ، هو تجاوز النظام العام ومحاربة النظام الشرعي. والذين قتلوا في الكثير من حقب التاريخ ، لم يكن بسبب آرائهم وأفكارهم ، وإنما بســبب عوامل سياســية أخرى ، مرتبطــة بالنظــام العــام ، وطبيعة الســلطة وبنيتها . لذلــك نجد أن الإمــام علي بن أبي طالــب (ع) لم يحارب ويرفع الســلاح في وجه الخوارج ويقتلهــم ويقاتلهم إلا حينما تجاوزوا حرية الكلمة والتعبير ، وسعوا إلى فرض كلماتهم وقناعاتهم وتصوراتهم بالقوة والقهر والعنف . فلقد كفر الخــوارج الإمام علي ولكنه لم يحاربهم لذلك . ولكن حينما اســتباحوا دم المسلمين، وتعرض النظام العــام للخطــر وقف في وجههــم . وقد وضــح الإمام (ع) موقفــه من الخــوارج في هذه الروايــة .. « فقد روي أن أصحابه ســئلوه عن الخوارج : أمشــركون هــم يا أمير المؤمنين .. قال من الشــرك فروا .. قالوا أمنافقون ؟ قال إن المنافقــي لا يذكــرون الله إلا قليــلا ! قالــوا فمن هم يــا أمير المؤمنيــن ؟ قال أخواننا بغــوا علينا فقاتلناهم على بغيهم . فأذكروا عني إذا لقيتموهم من بعدي أنهم طلبوا الحق فأخطأوه ، أما القاســطون فقدطلبوا الباطل فأصابوه» .. (١٤) .

ومــع كل ما بدر من الخــوارج من تصرفــات وخروج عن الإجماع الوطني والديني وإعلانهم الحرب الضروس

ضد الشرعية السياسية والدينية ، إلا أن الإمام علي (ع) لم يكفرهم ويخرجهم من ملة الإسلام . فحينما سأله السائل قال : من الكفر فروا . ولم يعتبرهم منافقين ويشن عليهم حرب الشائعات والأوراق الصفراء ، وذلك لأن المنافقين لا يذكرون اللّه إلا قليلا وأولئك يذكرون اللّه كثيرا .

أقصى ما قاله الإمام علي (ع) بحقهم أنه (ليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأصابه) .. فالإكراه مهما كان شكله ومسوغاته ، ليس طريق الإيمان . لذلك قرر الفقهاء أن « الكافر إذا أكره على الإسلام فالظاهر أنه لم يحكم بإسلامه سواء كان من أهل الكتاب أو لا ؟ إذ لا دليل على قبول مثل هذا الإسلام . فكما لا أثر لكفر المكره عليه كذلك لا أثر للإسلام المكره عليه» [١٥] .

أما بالنسبة إلى مسألة الردة وحرية المعتقد ، فأرى أنه من أفضل الآراء المعاصرة وأصوبها ، التي ناقشت هذه المسألة من منظور فقهي هو رأي المرحوم الشيخ محمد مهدي شمس الدين [١٦] . الذي بلوره على الشكل التالي : « يجب التمييز بين مستويين من تغيير الرأي والمعتقد : ـ مستوى تبديل الرأي والرجوع عن الإسلام كرأي شخصي للإنسان ، بينه وبين نفسه ، هذا الموقف لا يؤاخذ عليه طالما أن الأمر لا يصل إلى موقف الدعوة والتحريض على الإسلام ..

ـ مستوى الردة حينما يتحول المرتد من مجرد صاحب رأي إلى داع ومحرض . وفي هذه الحالة يكون هذا الإنسان قد خرج من دائرة حرية الرأي وحرية المعتقد إلى مساحة

أخــرى وهي دعوة الآخرين إلى الإرتداد ، وهذا يدخل في التقييم الفقهي في باب الحرابة الفكرية ، إذا صح التعبير أو في باب التخريب الفكري والعدوان الفكري . هناك آراء تحكم على المرتد بالمــوت أو بالحبس أو بالعزل بمجرد أن يعــرف عنــه ذلك . ولكنــه رأي لا نوافــق عليه . نرى الــرأي الآخر وهو أن الــردة إنما تكون موضوعا للمؤاخذة حينما يعبر عنها المرتد بنحو دعائي وتحريضي للآخرين أن يرتدوا مثله .

بهذا يكون المرتد هنا محــارب لعقيدة المجتمع قبل أن يكــون محاربــا لعقيدة الدولة . هــذا الموقف موضوع للمؤاخــذه ولا يســمح بالتنوع أن يصل إلــى هذه الدرجة . لا يمكــن أن يســمح بموقف يدعوا إلــى تفكيك أو إلغاء الأساس الوجودي للمجتمع وللأمة بحيث لا يعود المسلم مســلما ولا المجتمع الإسلامي مجتمعا إسلاميا . لا يمكن لعقيدة أن تشــرع إلغاء نفســها . يمكن أن تشــرع قبول غيرهــا والتعايش مـع غيرهــا . يمكن أن تشــرع حرية الإعتقــاد بهــا ، ويمكن أن تحتمل فــي مجتمعها الخاص الأغيــار الذيــن لا يعتقــدون بها ، ويمكــن أن تؤمن لهم الوضع الحقوقي المناسب لحقوقهم الإنسانية وكرامتهم الإنســانية والتعبيــر عن ذاتيتهــم الخاصة فــي العبادة والثقافة والتشــكيل الاجتماعــي . أما أن يصل الأمر إلى تشــريع إلغاء الذات ، فهذا أمر لا يمكن للإسلام أن يقدم عليه . وهذا يصح على أية فلســفة أخرى في أي مجتمع آخر . لا يعقل أن تشرع إلغاء نفسها لأنها بمجرد أن تفعل ذلك تكون قد عبّرت عن عدم صدقيتها وعدم حقانيتها،

حتـــى لو أخذنا مثــلا المجتمعات الديمقراطيــة الغربية ، هل تســمح فلسفتها التي تصدر عن اللبرالية والمذهب الرأســمالي في الاقتصاد لقوى وإتجاهات من شــأنها أن تغير جوهر هذه الفلسفة ؟

أن الســماح بوجـود أحزاب شـيوعية مثلا فـــي بلدان رأسمالية لا يعدو شكلا من أشكال ألوان الديمقراطية،وهو وجود شــكلي يمارس حرية مضبوطــة النتائج ولا تهدد أسس النظام وفلسفته .

٣) *الإلتــزام بالإطـــار القانونــي* الــذي يؤطــر حركة المجتمــع بــكل شــرائحه ومســتوياته ومجالاتــه . فحق التعبيــر لا يتجاوز الإطار القانوني الذي رســمه المجتمع لنفسه ، وهو الذي ينظم حركة المجتمع في الاتجاهات كافة .

فـ « الحرية في التصور الإسلامي أمانة ، أي مسؤولية ووعي بالحق ، والالتزام به ، وفنائه فيه . نعم إن الحرية بالمعنــى التكوينــي هي إباحــة وإختيار أو هــي فطرة ، فقد أختصنــا اللّه بخلقه تحمل القــدرة على فعل الخير والشــر . وكانت تلك مسؤولية ، أما بالمعنى الأخلاقي أو التشريعي فهي تكيف حسب عبارة الأصوليين . الحرية : أن نمارس مسئوليتنا ممارسة إيجابية ، أن نفعل الواجب طوعــا . بإتيــان الأمر واجتناب النهي ، فنســتحق درجة الخلفاء وأولياء اللّه الصالحين»[١٧] .

فمــن خلال هــذا المنظور للحرية بكونها مســئولية

وأمانة ، نحن نتعامل مع حق التعبير ، فهو كذلك مسئولية وأمانة ، ينبغي لنا أن نستخدمها أفضل إستخدام .

فحق التعبير ليس غاية نهائية ، وإنما هو وسيلة لإنجاز شهود الإنسان في هذه الأرض وخلافته وتحمله للأمانة والمسئولية التي حملها اللّه سبحانه وتعالى للإنسان . إذ قال تعالى [إنا عرضا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا] (١٨) .

لهذا من الضروري أن يتم التعامل مع هذا الحق العظيم بدافع من الحب والإخلاص ، حتى يتسنى لنا جميعا تحقيق المراد الأسمى لهذا الحق وللمنظومة المفاهيمية الإسلامية .

فالحرية هي بوابة أن يكون الإنسان الفرد والجماعة، سيد نفسه ومصيره ، وهي التي تدفعه إلى إجتراح وسائل التطور وأساليب التقدم ، وهي معيار التقدم للأفراد والجماعات . والحضارات لا تبنى بدونها ، والعمران لا يشيد إذا غابت ، فهي بوابة الحياة الكريمة والسعيدة والمتطورة .

ولا يمكن أن تتوطد أركان الديمقراطية على الصعيد المجتمعي ، إذا لم يتم التشريع والحماية لحرية التعبير وحق المواطن (بصرف النظر عن منبته وموقعه الاجتماعي والسياسي والفكري) في التعبير عن آراءه ومواقفه وتصوراته للراهن والغد .

الهوامش

١. من هدى القرآن ، السيد محمد تقي المدرسي ، المجلد الأول ، ص ٤٤٦ ـ ٤٤٧ ، دار البيان العربي ، بيروت ، ١٤٠٦هـ .
٢. من وحي القرآن ، السيد محمد حسين فضل الله ، المجلد الثاني ، الحلقة الخامسة ، ص ٢١ ـ ٢٢ ، دار الزهراء ، الطبعة الثالثة ، بيروت ١٩٨٣م .
٣. القرآن الكريم ، سورة الكهف ، آية(٢٩) .
٤. القرآن الكريم ، سورة الغاشية ، آية (٢٢) .
٥. القرآن الكريم ، سورة يونس ، آية (٩٩) .
٦. لا إكراه في الدين ـ دراسات وأبحاث في الفكر الإسلامي ، جودت سعيد ، ص ٢٦ ، العلم والسلام للدراسات والنشر ، الطبعة الأولى ، دمشق ١٩٩٧م .
٧. المصدر السابق ، ص ١٣ .
٨. في البدء كانت الثقافة ـ نحو وعي عربي متجدد بالمسألة الثقافية ، عبدالإله بلقزيز ، ص ٥٥ الطبعة الأولى ، أفريقيا الشرق ، بيروت ١٩٩٨م .
٩. القرآن الكريم ، سورة الممتحنة ، آية (٨) .
١٠. جريدة الحياة اللندنية (١١ /إبريل ٢٠٠١م) دراسة رضوان السيد بعنوان (الثقافة الإسلامية وثقافة السلام) .
١١. الحق في التعبير ، محمد سليم العوا ، ص ١١ ، الطبعة الأولى ، دار الشروق ، القاهرة ١٩٩٨م.
١٢. الفكر الإسلامي المعاصر في إيران ـ جدليات التقليد والتجديد ، محمد رضا وصفي ، ص ١٩٤ ، دار الجديد ، الطبعة الثانية بيروت (٢٠٠١م) .
١٣. مجلة منبر الحوار ، العدد (٣٤) ، ص ٢٣ السنة التاسعة ، خريف ١٩٩٤م .
١٤. علي إمام المتقين ، ج٢ ، ص ٢٠٢ ، نقلا عن كتاب أخلاقيات امير المؤمنين ـ السيد هادي المدرسي ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٤١١هـ .
١٥. الفقه ـ الحدود والتعزيرات ، موسوعة إستدلالية في الفقه

الإسلامي ، الجزء (٨٨) السيد محمد الشيرازي ، ص ٣١٤ ، دار العلوم ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٨٨م .
١٦. مجلة منبر الحوار ، مصدر سابق ، ص ٢٥ .
١٧. الحريات العامة في الدولة الإسلامية ، راشد الغنوشي ، ص ٣٨ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٩٣م .
١٨. القرآن الكريم ، سورة الأحزاب ، آية (٧٢) .



من اصدارات مركز آفاق للدراسات والبحوث

الحداثة كحاجة دينية	د.توفيق السيف
الإسلام والإصلاح الثقافي	زكي الميلاد
الحوار المذهبي في المملكة العربية السعودية	مجموعة مؤلفين
الديموقراطية في بلد مسلم	د.توفيق السيف
التسامح وقضايا العيش المشترك	محمد محفوظ
رؤى في قضايا الاستبداد والحرية	فوزي آل سيف
سؤال الثقافة في المملكة العربية السعودية	محمد محفوظ
الإسلام والمرأة	زكي الميلاد
رهانات خطاب الاعتدال والواقع المعاصر	مجموعة مؤلفين
الوقف وإنماء المجتمع	مجموعة مؤلفين
التجديد الثقافي	محمد محفوظ-محمد الدحيم
الأثر الإعلامي واستراتيجية القرار الأمريكي	علي آل طالب